حـدائق الأفنيــة الداخليــة – الجزء 2

COURTYARD GARDENS

1. حدائــق الأفنيـــــة الداخليـــــة في البيـــوت

تتميز البيوت في أغلب المدن الإسلامية بأنها من النموذج الذي يضم فناء داخليا وبالتالي هي أبنية مغلقة نحو الخارج ومفتوحة نحو الداخل. تشكل هذه البيوت الخلية التي تتكون منها أحياء هذه المدن ذات النسيج الكثيف والمترابط بما ينسجم مع البيئة ذات المناخ الحار والجاف ومع البنية المجتمعات المسلمة فهي تمنح الخصوصية وتساهم في تحقيق التكاتف والتكافل الاجتماعيين الذي تتصف به هذه المجتمعات.

1.1. وظيفة الفناء الداخلي في البيوت

تحيط بفناء البيت مجموعة من الفراغات السكنية المتنوعة التي يتم الدخول إليها عبر الفناء حصرا، وبالتالي يشكل فراغ الحركة الأساسي ضمن المبنى. ولكنه بنفس الوقت مكان لمجموعة أخرى من الوظائف التي تجعله يختلف عن أفنية المباني العامة. ففناء البيت إضافة إلى كونه مصدر الإنارة والتهوية هو مكان هام للقاء الأسرة على مدى اليوم في جميع فصول السنة، حيث يدور القسم الأعظم من حياة العائلة هنا. فالفناء هو مكان عمل لسيدة البيت وفسحة لعب للأطفال والمكان المفضل لإقامة الأسرة بكاملها في الصباح الباكر وفي الأمسيات وفي الفناء يتم استقبال الأقارب والجيران وكذلك تناول وجبات الطعام.

الفناء كفراغ داخلي متعدد الوظائف

2.1. التكيف المناخي في البيوت ذات الأفنية – الهجرة الموسمية واليومية

إضافة إلى كل ما سبق ذكره كان توزيع الفراغات السكنية المتعددة الوظائف على جهات الفناء المختلفة في البيوت يسمح بالتأقلم بشكل مثالي مع المعطيات المناخية المتغيرة على مدار السنة. فغالبا ما كانت تستخدم فراغات الجناح الجنوبي المظللة، المفتوحة نحو الشمال في الصيف، بينما كانت الفراغات المقابلة لها والمعرضة لشمس الجنوب، هي المفضلة شتاء، كما كانت فرغات الطابق العلوي في حال وجوده مخصصة للشتاء، حيث تدخلها أشعة الشمس وتساعد على تدفئتها. كما كان هناك إضافة إلى هذه الهجرة الموسمية، هجرة يومية صيفا، حيث ينتقل السكان على مدار اليوم إلى أبرد مكان في البيت، ويشمل ذلك الفناء والإيوان والفراغات والقبو والسطح، وكان ذلك يختلف من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى أخرى.

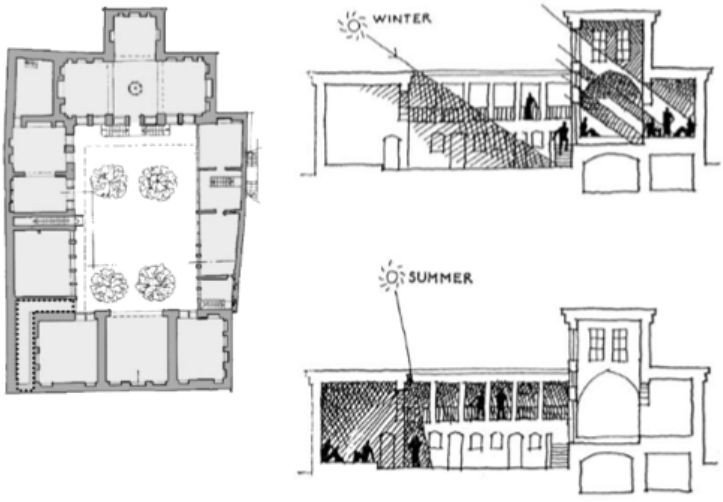

الهجرة الموسمية عبر مثال لبيت دمشقي

3.1. توزيع عناصـر الحديـــقة ضمن أفنية البيوت

تحقق أفنية البيوت السكنية كل الخصائص والأسس المذكورة أعلاه ولكنها تختلف عن أفنية المباني العامة من حيث الاتساع، فمساحتها أصغر وقد لا تتعدى أحيانا مساحة غرفة عادية وبالتالي ترتبط إمكانية تشكيل حديقة داخل الفناء وطريقة توزيع عنصري المياه والنباتات بالمساحة المتوفرة.

تشتهر **أفنية البيوت في المدن السورية** بحدائقها كونها ذات مناخ أكثر اعتدالا من شمال إفريقية أو العراق وإيران وغيرها. فكثير من البيوت في دمشق وحلب وحمص وحماة وغيرها تضم أفنية واسعة وتتوفر فيها المياه مما يسمح العناية بالحدائق الداخلية.

كثيرا ما تشكل بحرة مع النافورة مركز الفناء، وتتنوع أشكالها وموادها حسب فترة بنائها. تتوزع أحواض النباتات حول البحرة تاركة المجال لممرات حركة مريحة. الأحواض تكون منتظمة (مربعة أو مستطيلة) وأحيانا لا تتجاوز مساحتها ما يسمح بزراعة شجرة واحدة. وغالبا ما تنتشر أحواض نباتات إضافية بمحاذاة جدران الفناء. وكانت أشجار الليمون والنارنج والبرتقال والكباد هي المفضلة لخضرتها الدائمة وعبق أزهارها وروعة ثمارها، إضافة إلى عدد من عرائش العنب والياسمين وعدد كبير من أصص النباتات العطرة والمزهرة التي يمكن أن توزع على أطراف البحرة مباشرة.

أحد أفنية بيت خالد العظم في دمشق

فناء صغير في بيت دمشقي

ولا ننسى أهمية **تشكيل الممرات والمسطحات المبلطة ضمن الفناء**، وهنا نجد أنه كان يتم اختيار مواد وتشكيل ينسجمان مع الجدران أي الواجهات الداخلية المحيطة بالفناء. ففي البيوت الدمشقية التي كان غالبها مكون من طابقين كانت جدران الطابق السفلي تبنى بصفوف متناوبة من الحجارة الكلسية والبازلتية والمزية الصفراء أي وفق ما يسمى الأبلق، بينما يظهر الطابق العلوي أبيض اللون لكون الطينة الكلسية تغطي البنية الخشبية والطينية للمبنى. وبالتالي تم استخدام نفس المواد في أرضية الفناء أي الحجارة البازلتية السوداء والحجارة المزية الصفراء التي تم اختيارها لتحملها وقساوتها وتم تشكيلها في صفوف أو بشكل متداخل أو مشطي. يتخللها في بعض المواضع تشكيلات من الرخام المشقف وخاصة حول البحرات وقرب الإيوان.

وتتميز الكثير من البيوت ذات الأفنية في المدن السورية بوجود **الإيوان** كعنصر ينفتح على الفناء باتجاه الشمال مشكلا فراغا مظللا يستخدم كفراغ معيشة صيفي طيلة اليوم ويكون تصميمه وإكساؤه مرتبطا بالفناء. وغالبا ما يقع على محور البحرة وقريبا منها ليستفيد من البرودة التي تمنحها. وفي هذه الحالة تتوزع أحواض النباتات بحيث لا تشكل عائقا بصريا بين الجالس في الإيوان وبين البحرة. ويتم التأكيد على أهمية هذه المنطقة من خلال إكساء مميز للأرضية، كما في **البيوت الحلبية**، التي تشتهر أيضا بوجود مصطبة جلوس خلف البحرة في بعض البيوت، كانت تخصص للموسيقيين.

بيت نظام في دمشق: الإيوان والبحرة

بيت غزالة في حلب: الإيوان والبحرة والمصطبة

يضاف إلى ذلك وجود **أروقة** في بعض البيوت في الطابق الأرضي أو الأول أو كليهما، للحماية من الشمس صيفا ومن الأمطار شتاء وهو ما نلاحظه بكثرة في بيوت المنطقة الساحلية في سورية مثل اللاذقية وجبلة. ولكن لا توجد في بلاد الشام أفنية بيوت محاطة **بالأروقة من جميع الجهات** كتلك التي يمكن أن نجدها في **بيوت تونس والجزائر**، حيث يحيط بالفناء رواق من الأقواس نصف الدائرية أو الحدوية في كل من الطابق الأرضي والأول. ولكن العناصر الحدائقية بسيطة في هذه الأفنية، إذ تقتصر على نافورة بحرة رخامية مميزة في وسط الفناء المرصوف بالرخام مع بعض الأصص التي تحوي نباتات فقط. يكمل التشكيل إكساء القسم السفلي من جدران الأروقة في الطابقين بالخزف الملون، الذي يوحي بوجود حديقة.

رواق في الطابق الأول
في بيت دمشقي

رواق في الطابق العلوي
في بيت حلبي

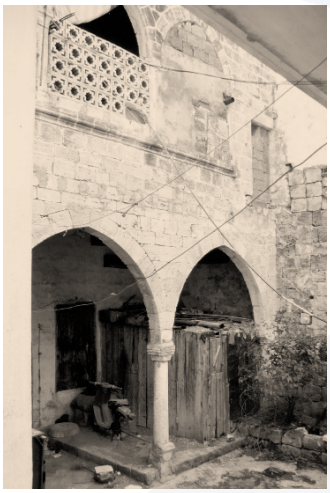

أروقة في الطابقين الأرضي والعلوي
في بيت في جبلة

فناء دار ابن عبد الله في مدينة تونس
محاط بالأروقة وتتوسطه نافورة رخامية

فناء دار مصطفى باشا في مدينة الجزائر
محاط بالأروقة وتتوسطه نافورة رخامية

وتتميز مدينة **القاهرة** أيضا **ببيوت ذات أفنية** وهي تختلف عن بيوت المدن السورية من حيث النسب، فرغم اتساع بعض الأفنية إلا أنها تبدو أضيق لإحاطتها بعدد أكبر من الطوابق، بما ينسجم مع المناخ القاسي والحار ويعطي فناء مظللا معظم اليوم. ولكن ذلك يؤثر على التنسيق الحدائقي، فنجده يقتصر في البيوت الكبيرة على حوض مركزي مستطيل الشكل يضم شجرة واحدة مع شجيرات بسيطة وسياج من البقس مثلا أو لا يتعدى حوضا مساحته كافية لزراعة شجرة وحيدة إضافة إلى بعض الأصص الفخارية التي تضم شجيرات أو أزهارا. كما تختلف بيوت القاهرة أيضا من حيث العناصر الفراغية المطلة على الفناء الداخلي، ففي الطابق الأرضي كثيرا ما ينفتح على الفناء فراغ بسيط منخفض يعرف **بالتختبوش**،

يستخدم للجلوس وغالبا ما يكون جداره الخلفي على شكل مشربية تنفتح على فناء أو حديقة خلفية مما يجعله فراغا مظللا تعبره التيارات الهوائية اللطيفة. أما في الطابق الأول فيطل على الفناء في البيوت الكبيرة رواق مرتفع يدعى في القاهرة **بالمقعد** ويستدل من اسمه أنه مكان الجلوس المفضل في البيت خلال الفترة الحارة.

الفناء الداخلي في بيت السحيمي في القاهرة: لقطة باتجاه الشمال تبين الحديقة والتختبوش –
ولقطة باتجاه الجنوب توضح المقعد المطل على الفناء في الطابق الأول

ولا بد أن نذكر أنه توجد حالات قليلة تم فيها استخدام **التصميم الرباعي** لتنسيق حديقة الفناء الداخلي ومن الأمثلة الشهيرة على ذلك أحد أفنية البيت المعروف بمكتب عنبر في دمشق، الذي تتكون حديقته من ممرين عريضين متعامدين مع وجود بحرة كثيرة الأضلاع عند تقاطع الممرات في وسط الفناء. الممرات تؤكد على الرواقين اللذين ينفتحان على الفناء على المحور الشمالي الجنوبي. المسطحات الحدائقية الأربعة متماثلة وتأخذ شكل حرف L اللاتيني ويضم كل منها شجرة سرو باسقة تتوزع حولها الأزهار والعرائش والمروج.

التصميم الرباعي في أحد أفنية مكتب عنبر في دمشق